المغاربة في أوربا خلال القرن التاسع عشر

د. يحيى بولحية

دكتوراه في التاريخ المقارن
أستاذ بالثانوية التأهيلية العيون الجديدة
وجدة – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

يحيى بولحية، المغاربة في أوربا خلال القرن التاسع عشر.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٤. ص ١٢١– ١٢٦.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

يتناول المقال إشكالية استقرار المغاربة في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية خلال القرن التاسع عشر، ويربط بينه وبين النظرة النمطية للغرب من ثنايا أدب الرحلة الذي رسم حدودًا فاصلة بين دار الإسلام ودار الكفر. تأسس هذا المخيال المغربي منذ فترة بعيدة عن القرن التاسع عشر، حيث نجد مثيلاً له لدى رواد الرحلة خلال العصر الوسيط؛ ويمكننا بسهولة بالغة استنتاج قواعد الاستمرارية في أدب الرحلة خلال الفترتين المذكورتين من ثنايا النظرة الثنائية للغرب على أنه مجال الاستقرار الدنيوي ومفارقته للطهر الديني والقيمي. انطلقنا في تحليل هذه الثنائية على نصوص ووقائع من أدب الرحلة وحاولنا مساءلة هذه الإشكالية من خلال عرضها على لغة الأرقام التي تفصح عن حجم الاستقرار المغربي بدول الغرب الرأسمالي. تبين الوثائق الأجنبية والوطنية وجود تجار ومؤسسات تجارية سمحت لبعض الفئات بالاستقرار بأهم المدن الغربية كباريس ونيويورك وليفربول وغيرها، إلا أننا لا نتوفر على معطيات شاملة لطبيعة النشاط وحجم العلاقة التي نسجها المغاربة مع المؤسسات التجارية الغربية. اطلع المغاربة على حقيقة الغرب ومظاهر التحديث فيه وكانوا يكتفون بنقل بعض مظاهرها إلى عائلاتهم المشهورة في فاس والرباط وتطوان وغيرها، بيد أنهم عجزوا عن تشكيل رأي عام يؤيد الانفتاح على الغرب والاستفادة من خدماته وتقنياته، في وقت كان ثقافة الآخر غير مستساغة بالداخل بفعل التراكمات التاريخية والهزائم العسكرية التي أُلحقت به على يد كل من فرنسا ١٨٤٤م وإسبانيا ١٨٦٠م.

مُقَدِّمَةْ

تستدعي مقاربةُ الموضوع، انسجامًا مع الخطة العامة للمقال، استحضارَ العمق التاريخي لهذا الوجود وأشكاله، ورصد ثوابته وتحولاته، واستنتاج التمثل الذهني للآخر المخالف في العقيدة والمصالح الدينية والدنيوية. لم تختلف رحلات العصر الوسيط، في مضمونها، كثيرًا عن مثيلتها التي تمت في القرون اللاحقة إلى حدود القرن التاسع عشر. وإذا قارنا بين نظرة الرحالة المسلمين إلى الغرب الأوربي خلال الفترة المذكورة، لا نجد اختلافًا يذكر؛ ويدفعنا ذلك إلى تناول الموضوع انطلاقًا من نماذج تنتمي إلى العصر الوسيط ونصلها ببعض متون رحلات النصف الثاني من القرن التاسع عشر. تأسس هذا الوجود والحديث عنه على ازدواجية النظرة للآخر المسيحي، وهي ازدواجية قائمة على ثنائية الدين والدنيا، ودار الحرب ودار الإسلام، وبينهما تشكلت أنماط من المخيال المؤسس للعلاقات الجماعية والفردية، ونشأت تقسيمات ذهنية انعكست على طبيعة هذا الاستقرار وحجمه.

(١) رحلة ابن جبير وثنائية الدين والدنيا

يمكن اتخاذ متن رحلة ابن جبير نموذجًا واضحًا في هذا السياق؛ فأثناء حديثه عن مدينة مسينة في جزيرة صقلية، أورد عنوانًا جديرًا بالملاحظة: ذكر مدينة مسينة من جزيرة صقلية

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

أعادها الله تعالى ويبتدئ قائلاً: "هذه المدينة موسم تجار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر، **لا يقر قها لمسلم قرار** ...، تغص بقاطنها، وتكاد تضيق ذرعًا بساكنها، مملوءة **نتنًا ورجسًا، موحشة لا توجد الغريب أنسًا. أسواقها نافقة حفيلة**، وأرزاقها واسعة بأرغاد العيش كفيلة، **لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان**، وإن كنت **غريب الوجه واليد واللسان**".[١] تمتعت مسينة برخاء أسعارها، وكثرة ساكنيها وسَعَة أرزاقها وانتشار الأمن بها -وهي عوامل مشجعة على الاستقرار الدنيوي- إلا أنه **لا يقر لمسلم فيها قرار بسبب آفاق الكفر المظلمة بها وكونها مليئة بالنتن والرجس**، وهي عناصر مفارقة للطهر الديني. ولذا ليس فيها، في نظره، "من المسلمين إلا نفر يسير من ذوي المهن، ولذلك **ما يستوحش بها المسلم الغريب**".[٢] لكن إلى أي حد يمكن القول بتطابق النص مع الواقع؟ وهل انعدم أو قل الوجودُ الإسلامي في دار الحرب خلال العصر الوسيط، كما شجعت على ذلك، ضمنيًا، كتب الرحلات ولامبالاة الإخباريين حول موضوع الحضور الإسلامي في أوربا؟

(٢) صورة الآخر في رحلات القرن التاسع عشر

ألم تكن انطباعات الصفار خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر قريبة مما ذكره ابن جبير؟ حيث قال في آخر كتابه: "وغالبًا تجاراتهم ومكاسبهم مشحون بالربى ومن ذلك البنكة التي هي من أعظم مكاسبهم... وحيلهم وتدبيراتهم في ذالك لا تحصى واستنباطاتهم لا تستقصى".[٣] وعلى الرغم من إعجابه بما بلغه المجتمع الفرنسي/ الغربي من تحولات تقنية وسياسية واجتماعية واقتصادية، فلم يجد بدًا في آخر مصنفه (ص:٢٢٧) من إيراد الآية الكريمة ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.[٤] وكأن النص القرآني يشفع للمغاربة/ المسلمين تأخرهم الدنيوي في مقابل تمسكهم بالعلوم التي تنجي من عذاب الآخرة. وإن كنا نعلم بأن الإسلام كل لا يتجزأ، وبأن علوم الدين والدنيا والتمكين للإنسان في الأرض، بمقتضاهما، مقدمة سليمة للفعل الحضاري المنشود والمشهود.

سجل الصفار، مجملاً، المسافة الفكرية والعقدية التي تفصله عن الآخر المغاير ثقافيًا وفكريًا، قائلاً: "... **وإني أعتذر من التقصير وأعترف بعدم التحرير، وأستغفر الله مما جنته يداي، وأبصرت هناك عيناي من المناكر الشنيعة وسمعته أذناي من الإشراك والكفريات الفظيعة ومن مخالطة أهل الضلال**..".[٥] يدل النص على انقسام في الذهنية المنتجة للمعلومة الوصفية التي تحمل انطباعات صاحبها، ففي مقام آخر ذكر قائلاً: "فما أحزمهم وما أشد استعدادهم، وما أتقن أمورهم وأضبط قوانينهم وما أقدرهم على الحروب وما أقواهم على عدوهم".[٦] ويتم ذلك في نظره "لا بقلوب ولا بشجاعة ولا بغيرة دين، إنما ذالك بنظامهم العجيب وضبطهم الغريب وإتباع قوانينهم التي هي عندهم لا تنخرم".[٧] لكن أليس إتباع القوانين والنظام العجيب والضبط الغريب نتيجة للأخلاق البروتستانتية التي فصل فيها ماكس فيبر (Max Weber) واعتبرها النحلة الجديدة التي أطرت الانطلاقة الرأسمالية، في أوربا الغربية، القائمة على منطق البحث عن الربح وبذل الجهد المادي والعلمي لتحقيق ذلك؟

بعد هزيمة تطوان شارك إدريس بن محمد بن إدريس العمراوي في رحلة سفارية إلى باريس سنة ١٨٦٠م؛ وعبر عن إعجابه بما سبق أن ذكره الصفار في رحلته؛ ففي حديثه عن آلة التلغراف، قال: "وقد أخبرنا رئيس المحل أنهم في أربع دقائق يكتبون أخبار كثير من الأقاليم من بر العجم وإصطنبول والهند والشينة ومصر وتونس والجزائر والماركان والنجليز وغير ذلك كأنهم حاضرون فيها".[٨] يبدي صاحب النص إعجابه بتقانة الآخر المتقدم والمخالف في الدين، ويقع في إشكال يمكن صياغته كالآتي: إذا كان الفرنسيون/ الغربيون قد انتصروا وامتلكوا وسائل التمكين الدنيوي رغم فساد معتقداتهم الدينية، فلماذا انهزم المغاربة/ المسلمون وهم أصحاب العقيدة الصحيحة؟ وكان المخرج بالنسبة إليه كالآتي: "**وفيه أدل الدليل على أن أمورهم بلغت الغاية، وتجاوزت النهاية، وأنه في الحال يعقبها الانحلال، وتأخذ في الانعكاس والاضمحلال**".[٩]

في نفس السنة أوفد المولى محمد بن عبد الرحمن وفدًا سفاريًا إلى إنجلترا،[١٠] وتطابقت انطباعات محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي مع ما سجله إدريس بن محمد بن إدريس العمراوي حيث قال: "والحاصل، أنهم – دمرهم الله- يستعملون أشياء تدهش، لاسيما من رآها فجأة، وربما اختل مزاجه من أجل ذلك ... كيف تحيلوا على إصلاح دنياهم، حتى أدركوا منها مناهم، واستعملوا لذلك قوانين وضوابط، وفي كل ما يقربهم منها غوابط، **وفيه إشارة إلى أن طيباتهم عجلت لهم، وذلك نصيبهم وحظهم...**"،[١١] وفي موضع سبب اكتشاف القوة البخارية يعقب قائلاً: "**... لأن العقل على قسمين، ظلماني ونوراني، فالظلماني به يدركون هذه الأشياء الظلمانية، ويزيدهم ذلك توغلاً في كفرهم، والنوراني به يدرك المؤمن المسائل المعنوية، كالإيمان بالله وبملائكته ورسله وكل ما يقرب من رضى الله...**".[١٢] بعبارة موجزة اختصر محمد الطاهر الفاسي الزمن وتماهى مع نص ابن جبير السابق، حيث قال بعد أن شارفت رحلته على الانتهاء: "... **حتى من الله علينا بالفرج، بعدما كنا في ضيق وحرج**، وأخذنا في أهبة السفر بعد قضاء الوطر".[١٣]

تمثل النصوص المثارة هروبًا من الجواب الحقيقي وتأويلاً غير مناسب لواقع الأزمة، وكان الأولى إثارة سؤال القوة الذي دعي العقل الإسلامي إلى الإجابة عنه بالاستعداد والرد على التحديات الغربية. والأكيد أن الرحلة إلى الديار الغربية أثارت إشكالاً ما فتئ يتكرر منذ العصر الوسيط ويتمحور حول سفر "الأنا" بعيون المرجعية الثقافية المحلية، واكتشافها خلل موازين القوى الدنيوية الذي كان يتم تبريره بثنائية الدين والدنيا، ولا شك أن هذا الخطاب استبطن مظاهر العجز التقني والعلمي أمام قوة الغرب وتنظيماته الحديثة.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(٣) نظرة المسلم للمسيحي في نظر ميشو بيلير

أورد ميشو بيلير (Michaux Bellaire) في أرشيفات المغرب صورتين معبرتين في موضوع مخالطة سكان الشمال المغربي للنصارى والتعامل التجاري معهم، ففي الأولى قال: "تعرفنا على شريف جزولي ينحدر من أتباع الشيخ محمد بن سليمان الجزولي صاحب دليل الخيرات، وقد درس في قبيلة رهونة. وبالرغم من كبر سنه، ظل محتفظًا بآثار التعليم الملقن الذي لا يمكن محوه. وقد حل بطنجة لبعض أغراضه، وعندما هم بتنظيف ملابسه عَدَل عن ذلك لأنه لم يتمكن من الحصول على الصابون المحلي المصنوع بمنأى عن التأثيرات المسيحية، ووجد أمامه فقط الصابون الرومي. واقتنع الشريف المسكين بأن صلاته لا يقبلها الله إذا نظف ثيابه بالصابون النجس -بالنسبة إليه- في حين تُجاز إذا استعمل الغسيل القذر".[١٤]

يثير النص مسألة تعامل فئة من سكان الشمال مع المنتجات الأوربية ويكشف عن إحدى الثوابت التي رأت في الغرب ومنتجاته التحديثية نجسًا لا يجوز مساسه والاقتراب منه، وهي قضية عاشتها مصر زمن الحملة الفرنسية (١٧٩٨ – ١٨٠١) عندما أثيرت تساؤلات فقهية تبحث في مدى جواز الوضوء من الماء الذي يُصب من الحنفية الغربية، وصحة تلاوة القرآن الكريم المكتوب بآلة الطباعة الأوربية. لكن هل كانت الذهنية المغربية، بمجملها، بهذه الصورة وبهذه النمطية؟ ألم يسافر التجار المغاربة إلى أوربا زمن سياسة الانفتاح أيام السلطان محمد بنعبد الله؟ مع ما يعنيه ذلك من تكيف الذهنية المغربية مع المناخ السياسي السائد والتعامل الإيجابي مع منتجات الغرب دون الوجل على مطالب الدين وخصوصيات العقيدة؟ ألم يسافر المغاربة بكثافة إلى أوربا طيلة القرن التاسع عشر كما سنرى ذلك ضمن هذا المقال؟

يمكن اعتبار هذه التصرفات، في زمن إنتاجها، طبيعية تعكس عنف الصدمة الغربية، مما أنتج حالة من النكوص إلى الذات وشدة الاعتزاز بالماضي ونبذ ثقافة ومنتجات الغالب ومنتجاته التحديثية. ونزعة يغلب عليها التهكم والازدراء ذكر بيلير المثل الثاني، قائلاً: "قدم عدد من سكان الجبال إلى مدينة طنجة، وأقاموا بهضبة مرشان بغرب المدينة. وبحثوا عن مكان لإقامة الصلاة. وقرروا الابتعاد من منازل اليهود والمسيحيين، والإقامة في وسط الطريق الذي يخترق الهضبة، باعتبارها ممرًا محتملاً لمجرى مائي يحمل سمة الطهارة. وعندما قضيت الصلاة، رأوا كلبًا جاثمًا بينهم وبين اتجاه القِبلة. وغمرهم بسبب ذلك الحزنُ، وسألوا أحد المارة عما إذا كان الكلب روميًا أو بلديًا، أوربيًا أو أهليًا. وفي حالة تبين «بلدية» الكلب والقطع بعدم ملكيته إلى أحد المسيحيين يبدو عليهم الارتياح، وإذا كان الكلب روميًا، فإنهم يعيدون الوضوء ويشرعون مجددًا في الصلاة -وتابع بيلير– معقبًا: شكل المسيحي عنصر رعب بالنسبة لساكنة جبالة. واعتُبِرت لديهم مدينة طنجة، بسبب استقرار المسيحيين بها، مكانًا قذرًا".[١٥]

وبغض النظر عن مدى صحة الرواية، والإخراج الذي صور المغربي المسلم في وضعية دونية، نستنتج لحظات الاستغراب في تمثل ساكنة الهبط للمسيحي وممتلكاته الرمزية والمادية، وهي صورة لا نعتقد شيوعها التام داخل عموم النسيج المجتمعي المغربي خلال القرن التاسع عشر؛ فقد تحدث الصفار وغيره من الرحالة المغاربة عن قيمة الإعجاب بمظاهر التحديث الغربي ودعوا من ثنايا متن الرحلة إلى التعامل الإيجابي مع بعض عناصر القوة المشاهدة والمسجلة. تندر الإشارات إلى موضوع هذا الحضور، في المصادر العربية، إلا أن ذلك لا يعني غيابًا له، بقدر ما دل على حجم الرقابة التي فرضتها المدونات التاريخية على تقييداتها.

(٤) التجار المغاربة في أوربا خلال القرن التاسع عشر

أشار رحالة شرقي إلى موضوع الاستقرار المغربي في أوربا قائلاً: "وللمراكشيين باع طويل في التجارة وإقدام لا يجاريهم فيه بقية المسلمين، فإنك تجد من المشتغلين الرابحين بها: أبناء البناني في منشستر منذ أربعون سنة، وعائلة بوهلال في جنوة، وعائلة بنيس في ليفربول، وعائلة لحلو في مارسيليا، وعائلة جسوس في لندرة، وعائلة القباج في همبورغ".[١٦] بل إن الشيخ بيرم التونسي يبدي إعجابه بدينامية الدور التجاري للأفراد المغاربة قائلاً: "... حتى لا تكاد تجد مدينة شهيرة للتجارة في إحدى قارات أوروبا وآسيا وأفريقيا إلا وفيها من تجارهم مَنْ له مزيد من الرواج والثروة، ولهم براعة في إدارة التجارة يناكبون بها الأوراباويين".[١٧] من جهة أخرى؛ أورد أحد الباحثين أسماء وتراجم بعض التجار والمستوطنين المغاربة ببعض البلدان في أوربا والولايات المتحدة و"لم تخل مدينة تجارية مهمة في القارات الثلاث من تجار مغاربة نشيطين استطاعوا أن يبزوا الأوربيين".[١٨]

وحدد أحد الدارسين عدد المغاربة المسافرين إلى الخارج، كل سنة، في "ثلاثة آلاف، يتوجه منهم إلى أوربا (٤٠٠) أو (٥٠٠)، والباقي يتنقل إلى مكة".[١٩] ويعلق قائلاً إن المتوجهين إلى بلاد الحجاز يعودون أكثر "تعصبًا"، ويدفعنا ذلك إلى الاستنتاج بأن نظراءهم الملتحقين في أوربا يكونون، حسب زعمه، أكثر "تنويرًا".[٢٠] وأشار الرحالة الإيطالي إيدموندو أميشيس (Edmondo De Amicis) (١٨٤٦-١٩٠٨م) إلى موضوع التجار المغاربة في إيطاليا قائلاً: "ألتقي دوما بتجار من فاس سبق لهم المكوث في إيطاليا، ففي كل سنة يقوم أربعون أو خمسون بالسفر إليها. وينوب عن العديد منهم وكلاءٌ مور أو عرب في مدننا الرئيسة. ويذهبون بالخصوص إلى شمال إيطاليا حيث يشترون الحرير الخشن والناعم والمرجان والقلائد والموسلين..".[٢١]

(٥) عينات من الاستقرار المغربي في أمريكا وأوربا

يمكن توضيح بعض ملامح الموضوع من خلال الجداول الآتية:[٢٢]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

ـ الولايات المتحدة

الاسم	طبيعة النشاط
الحسن السوسي	كان يقيم في أمريكا، وعاد إلى المغرب وحظي بمقابلة السلطان الحسن الأول وذلك قبل ١٨٩٢م.
الحاج عبد الله بن التهامي البقالي	أقام في الولايات المتحدة حوالي سنة ١٨٩٢م، وكان له وكيل بالجديدة في شخص أخيه الحاج محمد وكان يوجه لقبيلة شتوكة أوراق المخالطة بقصد شرائها.
ليون غزيل	أقام في مدينة نيويرك للتجارة سنة ١٨٨٨م، وكان له سماسرة في القصر الكبير.
إلياس بن الطويل	أقام في إحدى مدن الولايات المتحدة وعاد إلى المغرب سنة ١٨٨٩م.

ـ إنجلترا

الاسم	طبيعة النشاط
الحاج الطالب بن الحاج حمادي الأزرق	كان تاجرًا في مدينة منشستير لمدة طويلة قبل ١٨٨٦م، ولما عاد إلى المغرب صار وكيلاً عن الشركة الإنجليزية (Coddington).
محمد بناني	أقام في منشستر حوالي سنة ١٨٩١، وكانت له محلات تجارية في مصر، وأقامت عائلة بناني في هذه المدينة مدة تزيد عن ٤٠ سنة.
الحاج الطالب لحلو	مكث في بريطانيا قبل ١٨٧١م واكتسب الجنسية البريطانية.
الحاج أحمد جسوس	استوطن مدينة منشستير وتاجر في مادة الجلود واتخذ الجنسية البريطانية.
الحاج المهدي ميكو	أقام في منشستير حوالي سنة ١٨٨٧م.
بنيس	كان موجودًا في مدينة ليفربول في نهاية القرن (١٩م) وبداية القرن (٢٠م).
عزوز بن كيران	مارس التجارة في منشستير سنة ١٨٦٣م وبقي هناك حتى سنة ١٨٩٣م.
الحاج الطالب ابن جلون الفاسي	مارس التجارة في إنجلترا منذ ١٨٦٥م وحقق جراءها أرباحًا طائلة.
أبو عمرو الأحرش السلاوي	تاجر في لندن قبل ١٨٨٦م.
بنعاشر العوفير الرباطي	كان تاجرًا في منشيستير قبل سنة ١٨٨٧م.
الحاج عبد الكريم بريشة	كان يتاجر في المغرب ومنشستير وبلدان المشرق العربي.
محمد بن عبد الرحمان بركاش	تقلد وزارة الخارجية وقضى شبابه مشتغلاً بالتجارة في جبل طارق ولندن.
هارون أفرياط	استقر في مدينة منشستير.
محمد بنعزوز الفاسي	كان تاجرًا في لندن قبل ١٩٠٣م، وكانت عليه ديون من قبل تاجرين إنجليزيين سنة ١٨٨٠م.
موسى المسيح	من يهود المغرب، هاجر إلى لندن سنة ١٨٦٥م بقصد التجارة، وعاد إلى المغرب سنة ١٨٦٨م.
مناحيم أفلالو	كان من تجار السلطان.
عبد الرحمان بناني سميرس	وكان له مركزان تجاريان في منشيستر في نهاية القرن التاسع عشر.
عبد الوهاب التازي	فتح مركزًا تجاريًا في منشستير.
الحاج محمد الأزرق	تاجر في ليفربول ومنشيستر ما بين (١٨٨٧ - ١٨٩٣م).
المكي بنعبد الله	فتح مركزًا تجاريًا في لندن سنة ١٨٩٠م.
الحاج عبد السلام بن الحاج محمد التازي الرباطي	كان تاجرًا للقطن في بريطانيا وخاصةً في منشستير وقضى في المهجر ٢٠ سنة واكتسب أموالاً وفيرة.
الشيخ التازي	من كبار تجار فاس، استوطن في مدينة منشستير للتجارة في المنسوجات القطنية.
الحاج المدني التازي	استقر في مدينة منشستير للتجارة.
ابن يعقوب برينطي	رحل إلى لندن للتجارة.
مايير بن مقنين	استقر في لندن سنة ١٨٢٨م.
الحزان يوسف المليح الصويري	كان تاجرًا في إنجلترا وكان من كبار الأغنياء وتوفي في لندن سنة ١٨٨٦م.
موشي لاريدو	رحل للتجارة في لندن سنة ١٨٩١.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الاسم	طبيعة النشاط
أحمد بن محمد بن عبد الله	كان تاجرًا في مدينة منشستير سنة (١٣٠٢هـ/١٩٠٢م).
محمد بن المفضل الكوهن	كان تاجرًا في مدينة منشستير سنة (١٣٠٢هـ/١٩٠٢م).
يعيش أفرياط	قطن في مدينة لندن سنة ١٨٩٣م.
يوسف أفرياط	قطن في مدينة لندن سنة ١٨٩٣م.
الإخوة ليبي	ولد بعضهم في إنجلترا وكانوا سنة ١٨٧١م من الرعايا البريطانيين المقيمين في الصويرة، ويبدو أنهم مغاربة حصلوا على الجنسية البريطانية.

ـ فرنسا

الاسم	طبيعة النشاط
ابن زكري	عاش في مرسيليا للتجارة وتوفي بها سنة ١٨٨٢م.
الحاج علي بن الحاج	قضى أزيد من (٢٥) سنة في أوربا تاجرًا منذ حوالي ١٨٧٠م واستقر في مرسيليا كما تاجر في جبل طارق وجنوة.
الحاج عبد الكريم بنجلون	كان تاجرًا في مرسيليا قبل سنة ١٨٤٠م، كما كان سفيرًا إلى إنجلترا سنة ١٨٦٠م.
الحاج محمد لحلو	توفي في نهاية القرن (١٩م)، وكان شريكًا لدار تجارية فرنسية في مدينة مرسيليا.
آل مزور	وهي أسرة تاجر أفراد أسرتها في مدينة مرسيليا سنة ١٨٧٢م.
محمد بن العياشي بناني	كان تاجرًا في مرسيليا سنة ١٨٦٣م.
الحاج محمد القباج	حضر عددًا من الحفلات والمهرجانات كالمعارض، وعاد إلى المغرب وعاش في فاس آخر القرن (١٩م).
ولدا المعطي	وهما اليهوديان إيلي ورفائيل وكانا يتاجران في المجوهرات.
محمد بن عبد القادر بنيس	سافر إلى الخارج وكانت له تجارة نشيطة مع مدينة ليون.
محمد بن أحمد بنيس	كانت له دار للمنسوجات في ليون.
المفضل بنجلون	كان تاجرًا في مدينة مرسيليا مدة سبع سنوات.

ـ ألمانيا

الاسم	طبيعة النشاط
محمد عيوش	كانت له دار تجارية بهامبورغ سنة ١٩٠٧م.
اسرة القباج	كان أحد أعضائها يعيش في مدينة هامبورغ في نهاية القرن (١٩م).

ـ إيطاليا

الاسم	طبيعة النشاط
عبد السلام بن محمد الفقيه الشريف السلوي	سافر إلى إيطاليا وغيرها سنة ١٨٢٥م.
الحاج بناصر مرسيل	سمح له السلطان بالتجارة في المركب "ميمونة" والمرور في جنوة.
أسرة بوهلال	كان تاجرًا في جنوة.
الحاج إدريس بنونة	كان تاجرًا في جنوة وكان يقدم خدمات للمخزن حوالي ١٨٩٢م.

ـ إسبانيا

الاسم	طبيعة النشاط
عمر بن إدريس برادة	أقام طويلاً في مدينة إشبيلية.
محمد برادة	استوطن في إشبيلية بقصد التجارة قبل ١٨٧٥م.
التاجر التطواني	أقام في مدينة قادس وتوفي سنة١٨٢٨م.

يمكن اعتبار هذه النماذج عينة مناسبة لمقاربة بعض أوجه استقرار المغاربة في الخارج، ويمكن القول إن هذا الاستقرار بلغ حجمًا جعل منه ظاهرة معبرة عن التواصل التجاري بين المغرب والأقطار الأوربية. وكان من المنطقي، في ظل الانفتاح التجاري، وجودُ سماسرة وتجار ووسطاء مغاربة داخل البلدان الأوربية ذات العلاقة بالمعاهدات التجارية المختلفة التي عقدتها مع المغرب طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وفي هذا الإطار قال توماسي: "في سنة ١٨١٦م وُجد العديد من المغاربة في أوربا".[٢٣]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

خاتمة

مكنتنا الوثائق الحديثة من تحديد حجم التجار المغاربة في إنجلترا وفرنسا وغيرهما من البلدان خلال القرن التاسع عشر، وتسببت ندرتها في غموض صورة استقرار المغاربة في الخارج الأوربي خلال العصرين الوسيط والحديث. ونظن، من قراءة مضامين سياسة الانفتاح التي نهجها السلطان محمد بن عبد الله، أن حيوية التجارة بين الضفتين طورت من حجم الاستقرار التجاري المغربي في أوربا الغربية. ويمكن اعتبار القرار الذي أصدره المولى سليمان ودعا من خلاله إلى منع التجارة في دار الحرب لئلا يؤدي ذلك إلى تعشير ما بأيديهم، مؤشرًا دالاً على حجم استقرار التجار المغاربة في أوربا الغربية، ولعل ذلك ما دفع المولى سليمان إلى "اتهام، وبدون استثناء، كل فرد من رعايا المغرب بقي مستقرًا في أوربا ومصادرة أملاكه التي كانت توزع على الفقراء".(٢٤)

تمثل العينة التي أوردناها، نخبة امتلكت المال والثراء وحاولت، جاهدة، الاستفادة من نتائج الاتفاقات التي اضطر المخزن لعقدها مع القوى الغربية المختلفة. ويمكن القول: أن طبيعة ممارسة الفعل السياسي والهيمنة المخزنية في هندسة الفضاء الداخلي وترتيب مفرداته المتباينة أسهما في قلة اهتمام هذه النخبة بالقضايا التربوية والسياسية، فلم يقدر لها أن تنقل تجربتها الثرية في التعامل المالي والاقتصادي مع دور تجارية غربية متعددة إلى الدوائر الاجتماعية والسياسية والتعليمية، "وقلة من هؤلاء، في نظر العروي، مَنْ كان مثقفًا ومهيأ للتعبير عن أفكاره"(٢٥) التي راكمها أثناء الإقامة الطويلة في الديار الغربية. كان بإمكان هذه الفئة أن تشكل جزءًا من نسق التغيير في سياسة الإصلاح التي رامت الدولة المغربية تحقيقها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ لكنها فقدت، بفعل بنية السياسة المخزنية، الإطار والمقومات القمينة ببلورة رؤية التغيير والإسهام في تأسيس مشروع تنموي متقدم.

الهوامش:

(١) أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير، **رحلة ابن جبير**، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ ص: ٢٩٦.

(٢) المرجع نفسه، ص: ٢٩٧.

(٣) محمد الصفار، **رحلة الصفار إلى فرنسا (١٨٤٥-١٨٤٦م)**، دراسة وتحقيق: سوزان ميلار، عرب الدراسة وشارك في التحقيق: خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب بالرباط مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، ص: ٢٢٧.

(٤) **سورة الروم**، الآية [٦].

(٥) محمد الصفار، **رحلة الصفار**...، مصدر سابق...، ص: ٢٢٧.

(٦) المرجع نفسه، ص: ١٩٨.

(٧) المرجع نفسه، ص: ١٩٨.

(٨) إدريس بن محمد بن إدريس العمراوي، **تحفة الملك العزيز**، طباعة حجرية ، بدون تاريخ ولا دار نشر، الخزانة الملكية، الرباط ١٢٣٢، ص: ٦٠.

(٩) المرجع نفسه، ص: ٦٢.

(١٠) محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي، **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية سنة ١٢٧٦هـ/١٨٦٠م**، حققه وعلق عليه محمد الفاسي، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ويقول في بداية متن رحلته: "... اقتضى نظره السديد (المولى محمد بن عبد الرحمن) ...أن يوجه رسولا...إلى جنسي –الفرنسيس والنكليز- واختار لذلك طائفتين، طائفة وجهها إلى –بريز-، وطائفة إلى –اللندريز- فكان من قدر الله أن اختارتني الفرقة الذاهبة إلى –اللندريز- ..." ص: ١.

(١١) المرجع نفسه، ص: ١٩.

(١٢) المرجع نفسه، ص: ٢٨.

(١٣) محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي، مصدر سابق، ص: ٣٧.

(14) Michaux –Bellaire, *Archives Marocaines*, volumes XVII, *quelques tribus des montagnes de le région du Habt*. Publication de la mission scientifique du Maroc, Ernest Leroux, éditeur, Paris, 1911, page : 93.

(15) Michaux –Bellaire, *Archives Marocaines*, op.cit., page: 94.

(١٦) أورده: محمد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥ الجزء الأول،، ص: ١١٠-١١١.

(١٧) المرجع نفسه، ص: ١٠٩.

(١٨) مصطفى بوشعراء، **الاستيطان والحماية في المغرب (١٢٨٠هـ-١٣١١هـ/١٨٦٣م-١٨٩٤م)**، الجزء الأول، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص:٦١.

(19) Léon Nicolas Godard, *Description et histoire du Maroc*, Publié par C. Tanera, Paris, 1860.page :242.

(20) Ibid, page:22

(21) Edmondo De Amicis, "*Le Maroc, Traduction et gravures inédites*", dans Le tour du monde: nouveau journal des voyages, Par Edouard Charton, Publié par Libraire Hachette, Paris 1879, du page 97-160, page: 129.

(٢٢) مصطفى بوشعراء، **الاستيطان والحماية في المغرب** ...، مرجع سابق...، صفحات: ٦٣- ٨٥.

(23) Thomassy, Raymond, *Le Maroc et ses caravanes ou Relations de la France avec cet empire*, Publié par Librairie de F. Didot frères, Paris, 1845, page : 396.

(24) Ibid, page : 396.

(25) Abdallah Laroui, *Les origines sociales et culturelles du nationalisme Marocaine (1830-1912)*, centre culturel Arabe, Casablanca 1993.page:214.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449